محمـــــد إقبـــــال

شاعر الشرق والاسلام

للأســـــتاذ مسعود الندوى

١٣٨٩ — ١٨٧٣ ١٣٥٧ — ١٩٣٨

(لو كان وحى بعد وحى محمد
لانشق ذاك الوحى عن آياته)

أمير البيان

يعرف قراء العربية شيئاً كثيراً عن زعيم الهنادك غاندى وزعيم الهند الإسلامية دفين الحرم القدسى الشريف (١) محمد على رحمه الله ، وشاعر بنغال طاغور وغيرهم من رجال الهند وزعمائها . ولكن معرفتهم بشاعر الشرق والإسلام الدكتور محمد إقبال ضئيلة جداً . والتبعة فى ذلك علينا ، إذ لم ننقل أفكاره إلى لغة الضاد ، حتى فاضت قريحته بهذه الشكوى اللطيفة :

نوات من به عجم آتش كهين أفروفت
عرب زنغمة شوقم هذوزب جراست

لقد أذكى شعرى النار الخامدة فى قلوب العجم ، ولكن العرب لا تزال تجهل ما أبثه من آيات الوجد والشوق .

لذلك رأيت أن أتحدث إلى قراء الرسالة — وهم الصفوة المختارة من قراء العربية — عن محمد إقبال ، الشاعر الحكيم الذى أوتى نوراً من القرآن الحكيم ، وقبساً من أسرار الكون ، ومنحه الله نظرةً ثاقبةً فى حوادث المستقبل ، وبصيرةً نافذةً فى حقائق الأشياء .

نعم ، أريد أن أتحدث إليك عن الرجل الذى أيقظ فى شباب الأمة وشيوخها فكرة الاعتزاز بالقومية الإسلامية ، وجعل من هذه الأمة الباثسة المسكينة أمة قوية الشكيمة ، متعصبة العزيمة ، وثابة إلى المجد ، حريصة على تراث أسلافها .

إنى أود أيها القارئ العربى ، أن أعرفك بالشاعر الحكيم الذى جعل من الشبيبة المسلمة الهندية ، وهم متعمقون فى القومية (١) اللعينة ، مسلمين صادقين مؤمنين بالوحدة الإسلامية محاربين لنزعات الإقليمية والجمود والإلحاد ، وما أكثر عددهم ؛ فكم من متسكع فى ظلمات الزندقة والإلحاد ورد ماء شعره ، فاستحال عليه الاطمئنان ... وقد رحمها الله من هذا الارتياب العنيف إذ ماتت قبله بنحو سنتين وحاول هو أن يرثيها فلم يستطع ومات وفى صدره قصيدتها .

الزيجة الوالر :

ومن المؤلم أنه نكب فى أولاده فماتوا فى طفولتهم . وأخيراً رزق طفلا هو الآن فى الثامنة من عمره ، ولكنه مع الأسف نكب فيه حياً بأفظع مما نكب فى إخوته أمواتاً ! فقد اكتشفت مدرسته الأولية ضعفاً فى نظره بالرغم من حسن منظر عينيه ؛ وهرع (الزين) إلى الطبيب ، وحينئذ علم أن الولد مصاب بمرض ورأى له أثره الخبيث فى شبكية العينين وأنه من المحتمل أن يفقد الإبصار فى مرحلة الشباب !

(١) وهو الذى قال فيه أمير شعراء مصر :
أفى بدفنك عند سيدة القرى مفت أراد الله فى إفنائه

(١) أريد بالقومية اللعينة « القومية » التى تدعى فى مصطلح الافرنج بكلمة Nationalism وهى فكرة سياسية تناقض مبادىء الاسلام كما لا يخفى . أما القومية المرادفة لكلمة Nationality فلا مشاحة فيها ، لأن الاسلام لا يحول بين المرء وبين العطف على بنى قومه وعشيرته والتودد إليهم .

وخرج من العيادة ضرير الماضى يجر فى يده ضرير المستقبل .

الزيجة العائل :

كان يعول الفقيد العزيز بخلاف ولده هذا زوجة كريمة تقية ولست أدرى شيئاً عن مصيرها بعده .

والرأى لأولى الأمر لعلهم أن يعملوا على تقرير معاش لها .. فلقد أفنى الرجل نضارة عمره فى الإنتاج الأدبى الثمر أكثر من عشرين عاماً بين جدران «دار الكتب» دون أن يحظى بالتثبيت فى وظيفة دائمة بسبب عاهته ، بينما حظى به آلاف من ذوى العيون التى لم تقرأ كتاباً واحداً !!

عبد الفتاح البارودى

فوجد فيه ما يثلج الفؤاد ، وينور العقل ، ويهذب النفس . وكأين من متشكك في عقيدته دخل حديقة شعره الغناء ، وهو يريد أن يتنزه بين جداوله وأنهاره فشاهد فيها الزهرة الباسمة التي علقت بفؤاده ، والنرجس الغض الذي أسر فؤاده بجمال محياه ، فجعل يدخل فيها الفينة بعد الفينة ، وأخذ يرد عينها الصافية بين آونة وأخرى ، حتى يُشرب في قلبه بعض ما أشرب صاحبها من حب الإسلام والثقافة الإسلامية .

— ١ —

تخرّج محمد إقبال في الكليات المصرية ، ودرس فيها علوم الفلسفة والتاريخ إلى أن نال الشهادة العليا في الفلسفة . فعُيّن معلماً للفلسفة في الكلية الأميرية Goverememt College بلاهور ، وذلك في السنوات الأولى من هذا القرن ؛ ثم سافر إلى لندن ، وأقام في جامعة كيمبردج زمناً يدرس الفلسفة والحقوق إلى أن منح شهادة المحاماة Ber—at low ، ثم سافر إلى برلين لدراسة الفلسفة وما زال بها حتى نال لقب الدكتوراه Ph. D. ورجع إلى مسقط رأسه سالماً غانماً .

نشأ إقبال مفطوراً على التأمل والتعمق في حقائق الكون ، وبدأ يقرض الشعر وهو في عهد الطلب . وظهرت من أول قصائده أمارات النبوغ والكمال ، مع أنها كانت منسوجة على منوال شعراء العصر في الغزل والنسيب ؛ ثم أخذ يقرض مقطوعات شعرية في الطبيعة وذكرى بعض الشعراء ورثاء بعضهم حتى ترقت فكرته الشعرية وأخذ يحس بما ناب وطنه وأهله من النوائب ، فبدأ يجيش صدره بأبيات في الوطنية تأخذ بمجامع القلوب وتحرك النفوس الخامدة . ومن أحسن قصائده في هذا العهد وأبلغها أثراً في القلوب قصيدة نغمة مصدور ، (تصوير درد) التي صور بها حال الهند السيئة وما فيها من تطاحن وشقاق بين أبنائها . وهي أول شعره عرف به الناس أن ناسج برده شاعر مطبوع يُلهم القول إلهاماً . وكذلك نجد كلمته (بلال) الروح الديني الذي امتاز به الشاعر ، والذي جعله في ما بعد يتبوأ كرسي شاعر الإسلام الخالد الذي كان فارغاً منذ مئات من السنين . وجملة القول أن شاعرنا في أول عهده بالقريض ، كان شاعراً مطبوعاً وطنياً يترقرق الإخلاص في كل ما يجيش به صدره ؛ لكنه لم يكن إذ ذاك الشاعر الحكيم الذي يشعر بتفكك أوصال الرابطة الإسلامية ، فيدعو أمته إلى الاستمساك بعروتها الوثقى ، وينظر في مساوىء الحضارة الغربية فيحذر أهل الشرق من الوقوع في شركها والانخداع بمظاهرها الخلابة ...

— ٢ —

سافر محمد إقبال ، أستاذ الكلية الأميرية في لاهور إلى لندن وبرلين ليتخصص في الحقوق والفلسفة ، وقد شاهد الناسُ هذا الشاب الهندي في جامعات كيمبردج وبرلين مكباً على دراسته ، مشتغلاً بالبحث والتنقيب ؛ لكنهم قلما تنبهوا للروح الإسلامي الذي بقي يضطرب طول إقامته بلندن وبرلين ، ولم تقع أنظارهم على ذلك الشاب المسلم الذي ظلّ يراقب أحوالهم عن كثب ، ومكث يُعمل بصيرته في اكتناه أسرار رقيهم ، حتى إذا رجع ، رجع إلى وطنه مسلماً صادقاً ، قد زادته التجارب قوة إلى قوته الإيمانية وأطلعته الأيام على مصير المسلمين وأسباب تقهقرهم وانحطاطهم .

ذهب صاحبنا إلى أوربا سنة ١٩٠٥ وقفل منها عام ١٩٠٨ فمكث بها ثلاث سنين ، مُكباً على دراسته العلمية ما اشتغل في ظلالها بالشعر إلا قليلاً . ولكن ذلك النزر القليل الذي فاضت به قريحته في تلك الفترة قد جاء ، وعليه مسحة من الشعور الديني العميق ، والاشمئزاز من مظاهر التمدن الحديث ، والتبرم بالمتفرنجين من أبنائنا . وعلى ذلك فقد أحسّ أول مرة في أوربا بالجامعة الإسلامية وشعر بأن الوطنية الجغرافية لا تزيد المسلمين إلا تمادياً في الغيّ وبُعداً عن منهج الإسلام الصحيح . فتحولت فكرته الوطنية إلى فكرة دينية إسلامية ، شاملة لكل من يدين بكلمة الإسلام . ومن هنا ترى أن شعره في هذه الفترة ، على قلته ، أبسق فرعاً ، وأحلى جنىً ، وأطيب ثمراً منه في دوره الأول ، فتراه يقول :

ترالا ساری جہاں میں اس کو عرب کی معماری بنا
بنا مہارب حصار ملت کی اتحاد وطن نہیں الله
قد اتخذ (أي دار الإسلام) البنّاء العربي فنا فريداً ممتازاً عن

سائر أبنية العالم ، فليست الوحدة الوطنية أساساً لبناء قوميتنا .

وكذلك نجده يشكو المتفرنجين المفتتنين بأوربا ويُبعدهم عن الدين ، ويقول بأسلوبه الشعري البديع الآخذ بالألباب نعرّب معناها ، مجردة عن اللطائف الشعرية :

«بالأمس كان رجل ثائر يبكي ويصرخ على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن مسلمي الهند ومصر يريدون أن يهدموا بنيان الإسلام ، ومهما أراد زوار حرم الغرب هؤلاء أن يرشدونا إلى الخير ، فإنهم لا يمكن أن يكون لهم أي سلطان علينا ، لأنهم طالما غفلوا عن اتباع سننك والاهتداء بهديك » .

ثم يقول في هذه المقطوعة ما يبكي له قلبُ كل مسلم :

« ومن يُصغي إلى كلامك يا إقبالُ ؟ فإن الزمان قد تغير وإنك تقصُّ علينا الأحاديث البالية في هذا العصر الحديث » .

ولله درُّه إذ يقول من كلمة له ، يخاطب بها القافلين من سفر الحج :

يا ليت من يسأل الحجاجَ القافلين من بيت الله الحرام : ألم يجدوا هنالك شيئاً يهدونه إلينا غير كاس من ماء زمزم ؟

وأجود شعره في دوره الثاني ، كلمته الموجعة التي رثى بها سقلية حين عودته إلى الوطن . فإنه حينما مرت باخرته على تلك الجنة المفقودة عاودته الذكرى ولم يكد يملك فؤاده وعينه ، فبكى ملء عينه وجاد طبعه بأبيات أبكت جماً غفيراً من الناس ولا تزال تُبكي ألوفاً من الشبان .

ولله درُّ تلك القريحة المبدعة التي جادت بهذه الكلمة العصماء التي أولها (١) :

تعالى ، ساعديني أيتها العين الثرثارة وابكي ما شئت دموعاً ودماء فإن تربة المدينة الحجازية ماثلة أمام أعيننا .

ثم تطرق إلى ذكر العرب فهزّته العاطفة وجعل يُعدّدُ مفاخرهم التاريخية :

كانت هذه البلاد يوماً ما مركزاً لأولئك العرب الذين
كانت البحار ملعباً لسفنهم في سالف الأزمان
والذين زلزلوا عروش الأكاسرة والقياصرة
والذين كانت سيوفهم مخدعاً للبروق والرواعد

ثم تفنن في القول وقال : إن بلبل شيراز (سعدي) بكى على أطلال بغداد ، وسكب (داغ (١)) سجال دموعه على (دهلي) الشهيدة ، وأدى (ابن بدرون) فؤاده رثاءه للأندلس المرحومة ، ومُني إقبال الحزين بالبكاء على أطلالك وتذراف الدموع على تربتك ، فكأن القدر اصطفى القلب الذي كان حرباً لحيك محرماً

وفي ختام الكلمة بيتٌ ، هو مرآة قلب الشاعر وبيت فيه بيان الحقيقة ، وبها تنتهي الكلمة ، قال سقى الله ثراه ونضر وجهه يوم القيامة . يناجي صقلية :

اشرحي حالك لي وبوحي بما تكنه جوانحك من تباريح الشوق ، فإني رجل قتله الحب وأضناه هوى مثلك ، وبقية من الركب الذين كنت منزلهم ومحط رحالهم ، سأذهب بهديتك إلى الهند وأبكي فيها أناساً ، كما أنا أبكي ههنا أمامك .

(يتبع) مسعود الندوي

(١) وأنى لهذا الكاتب المجيد أن يفرغها في قالب من لغة الضاد جدير ببيان الشاعر الناصع الجزيل ، فسكتفي بترجمة معنى الأبيات بصرف النظر عن جمال الأسلوب ، وروعة البيان . وذلك عملا بقوله تعالى : « فان لم يصبها وابل فطل »

(١) شاعر هندي من أهل دهلي ، عاصمة الهند ، وقد شاهد خرابها بعينه عام ١٨٥٧ م بيد الانجليز فرثاها أوجع رثاء .

مصـــادر للباحثين

٦٠ قرش تاريخ الإسلام وطبقات الأعلام لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ (الجزء الأول)

٤٥ قرش اللباب في الإنساب لابن الأثير (الجزء الأول)

٤٠ قرش اللباب في الإنساب لابن الأثير (الجزء الثاني)

١٥ قرش مراتب الاجماع لابن حزم (جمع فيه المسائل المجمع عليها في أبواب الفقه كلها) ومعه محاسن الإسلام (في حكمة التشريع)

٧٥ قرش فتاوى تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦ (في الفقه والتفسير والحديث والنحو)

٢١٥ قرش مجمع الزوائد للحافظ نور الدين الهيثمي (جمع فيه زيادات مسانيد أحمد والبزار وأبي يعلى ومعاجم الطبراني الكبير والأوسط والصغير ، وغيرها على كتب السنن الستة) ٢٠ قرش ديوان السري الرفاء الشاعر الرقيق

تطلب من (مكتبة القدسي) بحارة الجداوي بميدان أحمد ماهر باشا بالقاهرة س . ت ١٦١٥ .